القصة الفائزة بالجائزة التشجيعية
في مسابقة بيت الغشام الأدبية للشباب

شتات

بشاير عبدالله السعيدية

-»أنى لكم خدمة الوطن عندما تكبرون؟»
- أن أكون طبيبا، يشفي العليل.
-أن أصبح محاميا، أحفظ حق الأنام.
- أن أحمي تراب الوطن
- أن أعلم أجيالا...وأنفساً وعُقولا.

تلوذ تلك الكلمات ببقايا صداها، شاقة طريقها بين حبات المطر، التي ملأ إيقاعها أرضا ما كادت تخلو يوما من وطء قدميه، منذ أن شُملت شهادته الجامعية بتوليفة مؤهلاته. تلك التي ما شاحَ نظره عنها وهو رام بنفسه على سلم المدخل، يمحص في دزينة أوراق من كُفاح الماضي، وأي ماض.

يلفه السكون، كيمامة رضخت لرصاصة صياد، والناس هرعى إلى مركباتهم من المطر. أذن له حاله الولوج إلى تأمل عميق وإحياء لذكرى، كيف أن مشهدا كسؤال معلمة الابتدائية عن أحلامهم التي رسموها قد كبرت معهم، فالأحلام ولدت منذ أن كان للطير نصيب من التحليق. كان يؤمن أن الأحلام تضفي إلى حياة الكثيرين ألقا من نور، أحلاما ربما كانت جوهر الأمل الذي أيقظ نفسا في رمقها الأخير في مكان ما من هذا العالم، لتحيل المحنة إلى منحة. يستحضر بعدها ذكرى بهجة علته يوم أن أنهى الدراسة الثانوية وشحذ نفسه تلك السنين ليبلغ أعلى نسبة نجاح وكيف أن عائلته يومها قد غنت الأهازيج واحتفلت حبورا به، كانت لحظات عبرت به في دهاليز سعادة ما بعدها سعادة.

اكتملت صورة مستقبل زاه بين عينيه يوم أن احتضنت يداه شهادته الجامعية. هي الشهادة ذاتها التي يتأملها الآن سكونا، بيد أن النظر إليها ليس بذات البهجة التي اعتادها. هي الآن محض حبر حبيس ورقة مشكلا اسم « جهاد».

اعتادت مسامعه ترديد أن الوطن كان ليكون جنة أنس لأهلها لو لم يكن للمفسدين يد فيه...تحسين حقيقي لقطاعات الوطن...يد إعمار صادقة تطال كل شبر من تراب الوطن. كانت ترداداته على ثلة من المؤسسات وقصة شغل منصب يؤمن له المعيشة شاهدا على صدق ما آلت له الحال نتاجا لفساد الضمائر. أن يكون الحظ معطوبا مرات، ليس علته في العتب، فلا مكاسب دون ألم، ولابد أن نمر بما يواتينا له القدر من محن، فكم من هنيء عيش انقلب أمره كلية إلى شدائد. لك تكن طرقات البداية يوما سالكة وإن كان لابد لعاقل أن يعين ذلك فهو أحرى بأن يكون، فيوما سيكون مربيا لآلاف الأجيال. لكن الخطب أن يمس الظلم كل مسألة لغفير الجموع من الشعب. أنى لأبناء هذه الأرض خدمتها إن لم تفتح يديها احتضانا ولملمة لهم ولآرائهم؟ تتوالى أيام طوال مترددا على مسؤولين يرمقونه نظرة الواثق بظفره بعمل. يحترفون جدا ترتيب كلمات الطمأنة. يلحظ فور خروجه كيف يرمون بمستنداته ضحية لخزانة متهالكة، ثم تتعالى ضحكاتهم هزئا. تمثلت بين ناظريه صورة والدين أفنيا عمرهما كفاحا لعيشه، وأخذ منهما الكبر مأخذه، وكيف أن حظا يسعفه لرد دينهما يقع تحت امرة هؤلاء. تتأجج فيه غصة الذل ويمضي.

يرتحل بعدها مع بصيص الفجر إلى بقعة جديدة، فهو «جهاد»، ويلزمه الجهادوإن طال الطريق. تضمحل هيئته ويأخذ من مركبته مبيتا؛ اختصارا لقطع مشوار طويل إلى قريته ومن ثم ذهابا إلى العاصمة حيث معركة الوجود قائمة.

في شتات هكذا محنة، تسعفه كثيرا ربانية «كلا إن معي ربي سيهدين »، كما لو أن تيهانه ينتشل من وحل واقع محدودب. يلحظ بعدها نتاج كدح الأيام، متدليا عب حائط احد مقرات العمل الكثيرة التي ارتادها. يجد أن من ظفروا بالغنائم تربطهم رابطة الدم ببعضهم، وبمسؤولي شغل المنصب، فيجر وراءه أذيال الخيبة.

يرتمي على مدرج الدهليز ويرقب بعينين باهتتين منظر الرواد يهجرون المكان إلى مركباتهم، إثر وابل يسقي أرواحا منهكة، يشيح بنظره إلى شواهد المجد الماضي بين يديه، هي محض حضن لثلة أحرف، لم تحض بتجسيد، فتلاشت مع قطرات مطر شقت طريقها عليها وسارت بها إلى الأفق البعيد.

في زاوية أخرى على يساره، تتعالى نداءَات جموع من أشباهه المنهكين.

-تمت-

القصة الفائزة بالجائزة التشجيعيةفي
مسابقة بيت الغشام الأدبية للشباب

الجحيم

سهام بنت سالم الحضرمية

قضيتُ الليلة أحارب وجعي الجديد، الذي حملته في جيبي منذ أن أخبرني عنه الطبيب، حملته بحنق شديد، ضرس عقل جديد، وجع جديد، يا إلهي! أي جحيمٍ هذا الذي ينْبت في أعماق الفَكّ؟

سألته بعينَين دامعتين، تستجديان اللطف والرحمة: كيف أطفئ هذا الجحيم؟

ابتسَم. لا.. لم يبتسم!لقد ضحك.. رأيته وهو يضحك وكأن وجعي لا يعني له شيئًا البتّة، تمنيت لو أحقنه بالإبرة المخدرة التي أعتبرها كل سلطته وقوته وجبروته، إنها الأداة التي تحمل خلف ظهرها أشباح العالم كلها مجتمعة، التي تحمل في جوفها مخدّراً للآلام القادمة، عجبي كيف تؤلمنا الأشياء التي تخدّر آلامنا في المستقبل؟ هل يجب أن أشعر بألم قوي حتى أحصل على حماية ضد الآلام التي بعده؟ لماذا تأتي الحياة بقوانين قاسية كهذه؟

لم يُجب عن السؤال، كتب لي وصفة من جملتين يتيمتين، نظرتُ إليه، نظرت للورقة التي بيدي، هل هذا سيطفئ جحيماً كاملاً داخل فمي!، لم أنتظر جواباً هذه المرّة، حصلت على الدواء، كان «مُسكّن ألم» فقط! كنت أنتظر شيئاً كبيراً، عظيماً، يهابه الوجع، يمتقع منه خوفاً ويهرب في ليلة باردة بلا عودة، كنت أنتظر شيئًا يشبه «مطفأة الحريق»، أفتحه، أسكبه داخل فمي، أو شيئًا يشبه «مطفأة السجائر»، أحكم القبض عليه بأصابعي، أغمس رأسه وسط الرماد، ويختفي، يزول كل شيء، أعود أنا إليّ، تعود الحياة جميلة، أعود لعاداتي السيئة والمضرة بالصحة وكأن طبيب الأسنان لم يلقنني درساً قط!

هأنذا في عتمة الغرفة، أسكّنُ ألمي، أصادقه، أؤرقه ويؤرقني، استلقيت على ظهري في السرير، مولياً وجهي شطر سقف الغرفة الصامت، أتخيل السقف سماءً، تمتلئ سمائي بالنجوم.. لا بل تسقط النجوم شُهُباً، تسقط نجمةٌ فنجمة.. لاأحصيها، بل أخبرها بأمنياتي المُؤجلة أمنيةٌ فأمنية..

تسقط نجمة: أتمنى أن يختفي الوجع. يختفي وجعي فجأة !

تسقط نجمة: أتمنى أن يزورني أبي. تتشكّل النجوم المعلقة في سماء الغرفة لترسم لي لوحة، وجه أبي مبتسماً، تتحوّل اللوحة إلى قمر مضيء وجميل، القمر يبتسم، أبادله التبسّم!

تسقط نجمة: أتمنى أن تسقط النجوم كل ليلة يزورني فيها الوجع. هذه المرّة لا يحدث شيء، انكدرت النجوم، كُشطت السماء، ازدادت الظلمة، رقّت عيناي شجناً،إلهي هل قامت القيامة!

أسمعُ صوتاً، شيءٌ ما يحترق! نارٌ تشتعل، إلهي هل سُعرت الجحيم لأجلي ! أهذاالمأوى الأبديّ الذي تتحدث عنه أمي؟ جحيمٌ أبديّ؟ من أن يأتي هذا الصوت؟ إنه من داخل فمي، كل هذا الجحيم في فمي، ينبت في العمق، يتصدّع فكّي بأسره، ينهار كما ينهار سدّ الماء، أشعر بأسناني تهرم، تشيخ، تتداعى، أصرخ موجوعاً، أضغط فمي بفداحة، أحاول كسر الألم، الألم يكسرني، أهرُع لمسكن الألم، أفتحه، ترجف يدي، يسقط، أحمله مرّة أخرى، أبتلعه كما ابتلع الحوت سيدنا يونس، هكذا قالت أمي، النبي يونس ابتلعه حوت! وفي لحظة، تذكرت بأنني ابتلعت الدواء! الحبّة الصلبة التي لطالما ما وقفتُ حائراً أمام لغز بلعها، التي لطالما عجزت عن أن أكون حوتها الذي يبلعها في بطنه، الآن أنا بلعتها دون أن أشعر. بقيت للحظات دون حركة، أتحايل على الألم، وأصادقه ليرحل. سكت الألم، وسكت معه الليل. هل يجب علينا مُصادقه الأشياء لترحل؟ إذاً يجب أن أصادق طبيب الأسنان كي لا أزوره مجدداً، سأصادق الرجل الذي يُطالب أمي بإيجار البيت كل صباح، سأصادق دودة القز المخيفة، سأصادق الظلام، دمعة أمي التي أراها كلما سألت عن أبي، الفواتير التي تحشرها أمي في خزانة المال الفارغة، المسطرة التي يضربني بها معلم الدين حين لا أحفظ الحديث أو السورة.إذا كان هذا صحيحاً، لم أكن لأصادق أبي حينما كانت الحياة تتشدق من عينيه، ولا ابتسامة أمي التي نسيتها عند عتبة قبره! غرقت في بحر من الصداقات المكسورة،أصابني خدرٌ لذيذ، الألم الخافت، الحزن الباهت.. ولكن فجأة! يخرج الشبح المختبئ تحت سريري، مبتسماً، يطغى ظلٌ غريب على وجهه، يُتهقه بعنف، أحدٌ ما يطرق باب قلبي بشدّة، يمتقع لوني، تبهت ملامحي، يتقوس فمي للأسفل، أتكوّر أنا تحت غطاء سريري.. يكبر الشبح ويتمدد، يصبح أكبر من الغرفة، يكبر أكثر، ينتفخ، ينفجر ! أخرج مذهولاً من تحت غطاء سريري، يفغرُ فاي دهشةً، أبحث عن الشبح، اختفى شبح السرير! عشرون عاماً ظلّ تحت سريري، يؤرقني، يقضّ مضجعي، يهمس لي في أشدّ الليالي حلكة، رحل شبح السرير!

قَال أبي ذات مرّة: «يرحل شبح السرير حين تكبر». هل هذا الجحيم كله.. الذي حدث الليلة، كان يعني أنني أكبر!